مـجلـــة بـدايـــات
Email :bidayat@lagh-univ.dz Revue :Bidayat ISSN: 2676-198X
المجلد: الخامس (05) / العدد: الأول (01) / جانفي 2023 / ص ص: 120-132

أدب الرحلة في التراث الجزائري

Travel literature in the Algerian heritage

العيفة خطوي [1]

Aifa el khatoui[1]

[1] جامعة عمار ثليجي – الأغواط -(الجزائر)

البريد الإلكتروني:el.khatoui@lagh-univ.dz

تاريخ الإرسال:2021-07-22	تاريخ القبول:2021-09-16	تاريخ النشر: 2023-01-14

مُلخّص البحث

كان الإنسان رحالة قبل أن يكون ذا وطن : كان يهجر جماعات جماعات بقاع الأرض الشحيحة ، ويقصد أصقاعها الخصيبة ووديانها الكريمة ، طلبا للقوت والتماسا لأغنامهم ؛ فلما استقر في الأوطان والمساكن لم يستغن في حياته عن الرحلة ، بل ظل يحفزه إليها ابتغاء الرزق تارة ، وحب الاستطلاع والمتعة مرة أخرى ، وتارة الارتحال لطلب العلم ونشره ، وأداء مناسكه الدينية حينا ، وابتغاء الجديد والطريف حينا آخر .

فماهي الرحلة ؟ ومن هم أبرز أعلامها في الجزائر ؟ و ماهو أثرها في تعارف الشعوب، وأثرها في ثراء الأدب ، وكذا تنمية العلوم ؟.

الكلمات المفتاحية : رحلة، أدب؛ روادها، أثرها .

Abstract:

Man was a traveler before he was a homeland: he used to abandon groups of people in the scarce parts of the earth, and intended their fertile lands and their generous valleys, in order to seek sustenance and to seek their sheep; When he settled in homelands and dwellings, he did not dispense with his life on the journey, but kept motivating him to it, sometimes seeking sustenance, curiosity and pleasure again, andsometimes traveling to seekknowledge and spread it, and perform his religious rituals at timeS, and seek new and interesting at another time.

So what is the trip? Who are the most prominent flags in Algeria? What is its impact on the acquaintance of peoples, and its impact on the richness of literature, as well as thedevelopment of science

المؤلف المرسل : العيفة خطوي البريد الالكتروني el.khatoui@lagh-univ.dz

الرحلة في اللّغة والاصطلاح :

- **لغـــــة :**

ربط العرب في لغتهم بين الدواب التي يرحلون عليها وبين مفهوم الرحلة بصورة عامة ، فأخذوا كلمة الرحلة من هذا المعنى .. قال ابن منظور في لسان العرب .

ناقة رحيله أي شديدة قوية على السير ، وجمل رحيل وبعير ذو رحلة ، ورحلة إذآكان قويا على أنّ يرحل . وارتحل البعير رحلة ، سار فمضى ، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالا ، ورحل عن المكان يرحل ، وهو راحل . والرحلة اسم للارتحال والسير ؛ يقال دنت رحلتنا ،ورحل فلان وارتحل وترحّل بمعنى انتقل وأرحلته إذّا أعطيته راحلة .[1]

فالرحلة جاء مفهومها من ارتحال البعير ؛ لأنّه واسطة النقل ، والرحل أيضا على ظهرها من الأوعية .[2]

وجاء معنى الرحلة في معجم " مقاييس اللّغة " في مادة " ر ح ل " " الراء والحاء واللام " أصل واحد يدل على مضي في سفر ."[3]

فالرحلة مصدر من الفعل رحل ،رحال ،ورحيلا ،بمعنى انتقل من مكان إلى آخر ،ورحلت نفسي أي صبرت على أذاه .[4]

تحيلنا المعاجم العربية في مادة " رحل " التي اشتق منها اسم " الرحلة " على معنى السير والمضي ، وبالتالي فإنّ المعنى اللغوي للرحلة فهو يعني السير والتنقل من مكان إلى آخر.

قال اللّه تعالى : " فلمّا جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه " ، " وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم " .[5]

فمثلت الرحلة ، سواء كانت برية أو بحرية في المفهوم العام ، انجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر ، ويأتي هذا الإنجاز من أجل هدف معين ، ويوافق هذا الهدف إرادة الإنسان وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر .[6]

- **الرحلة اصطـلاحـا :**

عرفت الرحلة بأنّها : الانتقال من بلد إلى آخر ، من أجل الوصول إلى هدف ما ، وهذا ما أكده " ياقوت الحموي " حيث ذهب إلى أنّ اعتبار الحركة دليل من دلائل الحياة ، والسكون من دلائل الموت ، ففي الحركة بركة كما يقال ، فالحياة كلها عبارة عن رحلة أو عملية حركة وتغيير .[7]

فالرحلة فن من الفنون الأدبية حظي بالشهرة وكتب فيه أدباء الأمم وعلماؤها في التاريخ القديم والحديث تصانيف كثيرة نالت القبول من لدن القراء و متذوقي الأدب ومحبي الوصف وذاعت بينهم لما تصوّره من أحوال الرّحالين وأحوال البلدان التي زاروها ، فأعجبوا بمشاهد الطبيعة من سهول و وهاد وصحاري ، ومظاهر عمران مختلفة ، كما وصفوا الناس وتقاليدهم .[8]

فهي " الرحلة " سلوك إنساني حضاري يأتي ثماره النافعة على الفرد وعلى الجماعة فليس الشخص بعد الرحلة هو نفسه قبلها ، وليست الجماعة بعد الرحلة هي ما كانت عليه قبلها .[9]

فهي ذلك اللّون من التأليف الذي يجمع بين الدّافع الوجداني العميق ، والتأمل الدقيق في رصد المشاهدات والظواهر بأناة ودقّة .[10]

فهي من الآثار الأدبية و انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي شاهدها أو يسرد مراحل رحلته وماتوقفت عليه عين الرحالة من جماد وغيره .[11]

ومنه نخلص أنّه لا يوجد تعريف حاسم للرحلة ، وإنّما هي مجموعة من التعاريف المتعددة والمختلفة ، وهو أمر يرجع إلى كون القواميس العربية لم تخصص لهذا المفهوم حيزا في صفحاتها ، ولم تعتبره مفهوما ينهض إلى جانب المفاهيم الأخرى الدارجة في حقل الأدب والمعرفة عموما .[12]

تاريخ الرحلة :

جبل الإنسان على الأسفار بحثا عن الرزق أو طلبا للعلم بشتى فروعه ، أو للترويح عن النفس ، وكان ذلك دأب الإنسان منذ أن خلقه الله تعالى على وجه الأرض .قال اللّه تعالى : " هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ." [13]

فالرحلة قديمة قدم زمان الإنسان ذاته إذ عرفها منذ العصور الغابرة حتى وقتنا هذا ، وإن اختلفت دوافع الرحيل وأسبابه ، وتباينت وسائل السفر .[14]

فالإنسان ولد رحالا ، وإن أعجزته الرّحلة تخيّل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال .[15]

والحقيقة أنّ الرحلات لدى الإنسان قديمة جدا ، بل إنّ الكائنات الحيّة تشاطره . كما أنّ أدب الرحلات قديم ، وكان تداوله يتم شفاها في البداية ، ثم ظهر كتابيا في الكتب الدينية ، مثل رحلة النبي نوح في السفينة التي أنقذت البشرية من الطوفان ، والملاحم الأولى مثل ملحمة جلجامش التي تتحدث عن سفر البطلين جلجامش وأنكيدو إلى لبنان .[16]

أهم روادها وأعلامها في الجزائر :

عرفت الرحلة ظهورا مبكرا في التراث الجزائري ، نحو الأقطار والمعاهد العلمية وكذا الأماكن المقدسة ، فقد أحدث الدين الإسلامي منعطفا كبيرا نحو التعارف وطلب العلم والقيام بالفرائض الدينية التي تتطلب التنقل ، ومن بين أهم الرحّالة الذين عرفوا في هذا المجال نذكر على سبيل المثال لا الحصر .

ابن مرزوق الخطيب ت" 780"

وممّا يرويه الرحّالة " ابن مرزوق الخطيب " أنّ رحلته الأولى كانت رفقة والده إذ يقول : " واقتضى نظر مولانا الوالد رحمه الله الانفراد ، وبعثني للوطن في قصة يطول ذكرها ."[17]

ولعل ابن مرزوق لم يكن صاحب رحلة مغلقة فيها ذهاب وإياب ، وإنّما رحلته مفتوحة ، قد كان خلالها مشرّقا ومغربا ، ناقلا لأخباره وأخبار العلماء ، والشيوخ ، كما كان ناقلا لأخبار البلدان والسلاطين ، ولم تكن رحلته مقيّدة بدافع واحد وإنّما تتعدد بحسب ما كان له من حظوة اجتماعية ، ومن ذلك ما كان له من أمر خدمته للسلطان المريني أبي الحسن .

وقد كان ابن مرزوق ذوّاقا للرؤى والمشاهد ، فكان مولعا بالوصف الدقيق والبليغ معا في رسم مشاهده التي كانت تحدث أمام مرآه ، خصوصا المنشآت وغيرها .[18]

عبد الرحمان الثعالبي : " ت 875"

يقول " قد أجازني سيدي وشيخي إمام العلم الصدر الكبير الثقة المحقق ، بقية المحدثين ، سيد وقته وإمام عصره وورع زمانه ، وفاضل أقرانه ، أعجوبة زمانه وفاروق أوانه ، ذو الأخلاق المرضية .... والأعمال الفاضلة الزكية ." [19]

وكانت رحلة الثعالبي سنة 802هـ " رحلت في طلب العلم من ناحية الجزائر من موضع يقال له يسر .. ذلك في أواخر القرن الثامن ، ثم تناهت بي الرحلة إلى بجاية فدخلتها عام اثنين وثماني مائة " ومن ثمّ يذكر من لقيه من شيوخ بجاية .ويعدّدهم في قوله : " منهم الشيخ الإمام الحافظ أبو الحسن علي المانجلاتي ، وعليه كانت عمدة قراءتي ومنهم شيخنا الولي الفقيه أبو الربيع سليمان بن الحسن وعليه كانت عمدة تجويدي للقرآن الكريم .[20]

الورتلاني :

وهو الحسين الورتلاني الإمام العالم شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الشيخ " سيدي الحسين الورتلاني ، نسبة إلى بني ورتلان ، أخذ العلم عن والده وأشياخ وطنه ثمّ رحل إلى المشرق فحج واعتمر، فرحل إلى مصر والحجاز .[21]

وقد حظي بتربية جعلت منه علما من أعلام المسلمين أهم مؤلفات " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار " ، وتعرف بالرحلة الورثلانية يصف فيها رحلته إلى الديار المقدسة سنة 1179هـ ، توفي في قريته وفيها دفن سنة 1193هـ .[22]

وممّا يروى عن وفاته فقيل أنّه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم وأخبره أنّه يعيش إلى السنة العاشرة من القرن الثالث عشرة ، وقد صدقت فعلا الرؤية .

وتعد رحلة الورتلاني مصدرا من مصادر التاريخ الجزائري والعربي ، من نواحي متعدّدة ، منها السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، خصوصا ما يتعلق بالجزائر ونخص بالذكر منطقة بلاد القبائل فهو يرسم صورة واضحة لما كان يجري من أحداث نظرا لكون المنطقة كانت تعيش نوعا من العزلة أنذاك .

كما نجده قد اعتمد كثيرا على مصادر في هذا الشأن سواء في نصوص الرحالّين الذين سبقوه كالعياشي والدرعي والتيجاني وغيرهم وكان سبب عودته لهذه المصادر هو توخي الحقيقة من منابعها ، فهو لا يكتفي بما شاهده أو روي له ، كان شديد الحرص على توثيق معلوماته .[23]

وقد شاهدناه في هذه الخطرة من العافية التي بسطها الله تعالى في الطرق والقوى والأمان التام .[24]

ابن حمادوش :

عبد الرزاق بن محمد بن محمد الملقب بابن " حمادوش " ولد بمدينة الجزائر سنة 1107هـ ، وتوفي في التسعين من عمره في مكان وتاريخ مجهولين ، درس العلوم الشرعية واللّغوية واتجه إلى العلوم الرياضية والطبية .[25]

وإذا كان ابن حمادوش لم يرق إلى مستوى بعض معاصريه من العلماء ، نظرا لبساطة أسلوبه واهتماماته العلمية ، على حد تعبير المحقق ، فإنّ الكثير من تآليفه كانت متداولة حتى خارج الجزائر كمؤلفه المشهور " الجوهر المكنون في بحر القانون " ، إلاّ أنّ أهم ما ميز ابن حمادوش من الناحية التاريخية ، رحلته المعروفة برحلة ابن حمادوش أو " لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال " .[26]

وموضوع رحلة " ابن حمادوش " عبارة عن سجل شخصي ضمنه أخباره الخاصة إبان رحلته إلى المغرب قصد التجارة والعلم ، والباقي عبارة عن أسانيده العلمية والإجازات المختلفة التي حصل عليها من المغرب أو من جهات أخرى .

كما أورد نماذج متعددة لعقود الزواج بعضها محلي والبعض الآخر لأسر من أصل أندلسي وكعادة هذا النوع من التآليف ، أورد ابن حمادوش أخبارا من التواريخ العامة والإسلامية وجملة من الطرائف المصاغة بطريقة زجلية .[27]

فوصف " ابن حمادوش " الأماكن الجغرافية التي ارتادها وصفا دقيقا مركزا على عادات الجماعات فيها المناسبات الدينية خاصة تتقاطع على جسد هذه المدونة العديد من الأخبار السياسية ، الاجتماعية والثقافية .[28]

ابن الدين الأغواطي :

تعتبر رحلة " ابن الدين الأغواطي " الأصلية مفقودة ، أما نصها فقد قام أبو القاسم سعد الله بترجمته ونشرها في كتابه " آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر " ، كُتبت الرحلة بالعربية في حدود (1826 . 1829) بناءً على طلب " وليام هيدسون " مساعد القنصل الأمريكي في الجزائر في الفترة (1825 . 1829)، مقابل مبلغ مالي. فأنجز " ابن الدين" عمله هذا وقبض الثمن من " هودسن " ذي النزعة الاشتسراقية الحريص على جمع معلومات جغرافية وتاريخية ولغوية، خصوصاً عن البربرية. ترجمت هذه الرحلة إلى الإنجليزية، وقد بقي النص العربي مجهولاً، وهو ما جعل الرحالة " أبو القاسم سعد الله " على إعادة النص إلى العربية.

وتكمن أهمية رحلة " ابن الدين " في الجمع بين أخبار الصحراء سكانا ومساكنا ، وكذا التطرق لعادات وتقاليد قومها ، وقد عدّد كثيرا من القرى والمدن التي زارها منها " عمور متليلي ، وادي ميزاب ، المنيعة ، ورقلة ، تيميمون ، تقرت ، عين صالح وغيرها من المدن داخل الوطن وخارجه ، فجمعت الرحلة في مسارها بين الداخل والخارج، وقد حاول أن يعين مسالك، ويوضح معالم، ويحدد مسافات بين مناطق ومدن. ويجلّي طبيعة هذه الجغرافيا، وهندسة بناء، ونظام حكم وتقاليد اجتماعية وغيرها، فعكست بذلك الرحلة كثيراً من الأوضاع المختلفة، التاريخية والجغرافية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. إنها رحلة برؤية استطلاعية غلب عليها الجانب الجغرافي التاريخي عن مواقع مدن، وأحوال ناس، لغة وعادات وتقاليد، وأزياء وفلكلور وغيرها .[29]

ومنه نستنتج أنّ أدب الرحلة الجزائري يحمل قيم علمية وثقافية ذات شأن عظيم ، فهو من أهم المصادر التي تحافظ على التراث الأدبي من الضياع ، كما قد يتضمن أدب الرحلة نصوصا لا توجد في مصادر أخرى ، لذلك فهو يشكل خيطا ساطعا من الألوان المفعم بالثقافات المختلفة من خلال المؤلفات التي حفظت لنا جانبا عظيما من التاريخ ؛ إذ أودعت تلك الكتب الكثير ممّا شاهدوه مؤلفوها ، من أحوال الشعوب والدول ممّا ساهمت الرحلة في توطيد الصلات والعلاقات .[30]

أثر الرحلة في تنمية العلوم:

وقد تكون الرحلة هواية ، تشبع حاجة في نفس الإنسان وترضيه ، وقد تكون الرحلة احترافا يخدم حاجة الإنسان ويشبعه ، ولكنّها تكون – في الحالتين – استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محدودة تدعو بكل الإلحاح للحركة والانتقال من مكان إلى مكان آخر .

بمعنى من شأن دوافع معينة أن تدعو الإنسان الفرد أو الجماعة دعوة صريحة وملحة ، لكي يخترق حاجز المسافة ، و لكي يتحمل مشقة السفر ومتاعب الاغتراب وصولا إلى غاية مباشرة وهي تنمية علومه ومعارفه .[31]

ولقد أشار " ابن خلدون " إلى فضل الرحلة في طلب العلم فقال : " أنّ الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم ."[32]

للرحلة فضل في نماء العلوم واتساع دائرتها ، وكم من كتاب يمد في علمه من أمهات الكتب هو وليد الرحلة ، ومن فضل الرحلة أنّها حفظت جانبا عظيما من التاريخ ، حفظته الكتب التي يودعها مؤلفوها ما شاهدوه في أسفارهم من وقائع وأحوال .

فالرحلات منابع ثرية لمختلف العلوم .[33]

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : " من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهّل الله له طريقا إلى الجنة ."

فكان الرحيل من أجل طلب العلم ، وشوقا لتلقي المعرفة ، وأصبحت الرحلة مقياسا لمكانة الساعي لطلب العلم ، حتى أطلق النقاد والمؤرخون عليهم عبارات المدح فقالوا : " ارتحل وهو ابن خمس عشرة ، أو ابن عشرين " أو رحل وتعب ، له رحلة واسعة ، أكثر الترحال ، له العناية التامة بطلب العلم ، وغيرها من عبارات المدح والثناء ، بل ساقوا في شأن الرحلة وصاحبها الأمثال ، فقالوا : تضرب إليه أباط المطي ، أو أكباد المطي ، رحل الناس إليه ، كما أطلقوا عليهم ألقابا متعددة منها " الرحال ، الرحالة ، والجوال أو طواف .[34]

إنّ الرحلة في طلب العلم رغم صعوبتها وقسوة ظروفها تشعر صاحبها بالمتعة النفسية ويستطلع أحوال البلاد والمناهل والمنازل ، ومشاهدة عجائب البلدان واختلاف الألسن والمأكل والمشرب ، وما يحصل عليه من رياضة ذهنية وبدنية .[35]

وخير مثال ما تؤكد معلومات الرحلة أنّ أهم دافع لانتقال " ابن حمادوش " مثلا إلى المغرب كان العلم ، فجل اهتمامه انصب على البحث عن العلماء لمجالستهم ومناقشتهم . وكان أول هؤلاء : الشيخ " محمد البناني الفاسي " ، الذي كان يدرس بجامع زاوية " سيدي أحمد بن ناصر بتطوان " ، ثم بعد ذلك بدأ يتردد على دروس الشيخ الورزازي في جامع الكاش .[36]

كما اشتغل " ابن حمادوش " بكتب الفلك واقتناء جملة من المؤلفات مثل " شمائل الترمذي ومفيد الحكام لابن هشام " . غير أنّ أكبر اهتمامه انصب خلال وجوده بتطوان على دراسة الفلك والبحث عن المهتمين به ، وقد لاحظ أنّ علم الفلك لم يكن له متقنا .

لقد استطاع " ابن حمادوش " خلال رحلته إلى المغرب جمع معارف واسعة ، فاقتناءه للكتب ونسخها ومجالسته للعلماء ومناقشته والبحث عن الإجازات كلها مؤشرات قوية لتأكيد الطابع العلمي لرحلته إلى المغرب ، ومن بين المواضيع العلمية الأخرى التي طرقها الرحالة " ابن حمادوش " في رحلته ، موضوع الجدل العلمي .[37]

يقول الإمام الشافعي في فوائد الرحلة :

تغرب عن الأوطان في طلب العلا *** وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تـــفرج هـــم والكتساب مـــعيشة *** وعـــلم وآداب وصحبـــة مـــــاجد [38]

ويقول أيضا :

ما في المقامِ لذي عقلٍ وذي أدبِ *** مِنْ رَاحَةٍ فَدعِ الأَوْطَانَ واغْتَرِبِ
سافر تجد عوضاً عمَّن تفارقهُ *** وَانْصِبْ فَإنَّ لَذِيذَ الْعَيْشِ فِي النَّصَبِ
إني رأيتُ وقوفَ الماء يفسدهُ *** إِنْ سَاحَ طَابَ وَإِنْ لَمْ يَجْرِ لَمْ يَطِبِ
والأسدُ لولا فراقُ الأرض ما افترست *** والسَّهمُ لولا فراقُ القوسِ لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلكِ دائمة *** لَمَلَّهَا النَّاسُ مِنْ عُجْمٍ وَمِنَ عَرَبِ
والتِّبْرَ كالتُّرْبَ مُلْقَىً في أَمَاكِنِهِ *** والعودُ في أرضه نوعً من الحطب
فإن تغرَّب هذا عزَّ مطلبهُ *** وإِنْ تَغَرَّبَ ذَاكَ عَزَّ كالذَّهَبِ[39]

فليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من مكمنه .[40]

ويقول أحدهم :

أقبلت أهوي على حيزوم طاوية *** في لجة اليّم لا ألوي على سكن
حتى أتيت إمـــام النـاس كـــلهم *** في الـــدين والمعلم والآثار والسنن

فالرحلة في طلب العلمّ ظاهرة قديمة نشأت بنشأة الحضارات الكبرى التي تفاعلت سلما وحربا، وتبادلت فيما بينها عوامل التأثير والتأثر، فكل حضارة لاحقة تأخذ من أصول وروافد حضارة سابقة .[41]

أثر الرحلة في ثراء الأدب :

للرحلة أثر في ثراء الأدب لا يقل عن أثرها في ثراء العلم ، فكم من قصيدة لا ينظمها الشاعر إلاّ حين يعزم على الرحلة .

يقول : الأعشى :

.

وَدِّع هُرَيرَةَ إِنَّ الرَكبَ مُرتَحِلُ *** وَهَل تُطيقُ وَداعاً أَيُّها الرَجُلُ

غَرّاءُ فَرعاءُ مَصقولٌ عَوارِضُها *** تَمشي الهُوَينا كَما يَمشي الوَجي الوَحِلُ

كَأَنَّ مِشيَتَها مِن بَيتِ جارَتِها *** مَرُّ السَحابَةِ لا رَيثٌ وَلا عَجَلُ

تَسمَعُ لِلحَلي وَسواساً إِذا اِنصَرَفَت *** كَما اِستَعانَ بِرِيحٍ عِشرِقٌ زَجِلُ

لَيسَت كَمَن يَكرَهُ الجيرانُ طَلعَتَها *** وَلا تَراها لِسِرِّ الجارِ تَختَتِلُ [42]

فالرحلة تتعرض لجميع نواحي الحياة ، إذ تتوفر فيها فائدة وفيرة ممّا يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير، فالرحلات منابع ثرّة لمختلف العلوم ، وهي بمجموعها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة .[43]

فهي من الآثار الأدبية وانطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي شاهدها أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة .[44]

فهو أدب" يقوم على وصف الأديب لما شاهده في رحلاته من عمران ، وأحداث ، وأشخاص .[45]

أدب الرحلة فن تغمره الحياة ، يزخر بالتجارب الحيّة ، والحركة والانتقال من مكان لآخر.. وقطع المسافات ، وتعدد المراحل .[46]

فالحركة روح الحياة وهي سمة أساسية في التركيب الجسدي والنفسي للإنسان، وقد هيئه الله لها وجعلها إمكانية ضرورية للحياة تتسق مع الهدف من إيجاده، والغاية التي خلق من أجلها وهي تعمير الأرض وعبادة الله تعالى[47].

وصف فيها الرحالون مشاهدتهم وسجلوا عبرها انطباعاتهم، وأرائهم كما نقلوا خلاصة ما طالعوه من كتب الغربيين الفكرية والأدبية، مما جعل هذه المؤلفات، التي تنتمي إلى فن الرحلة تؤدي دورا فعالا في تعريف الآخرين بالحضارة الغربية، ونشر أفكار أو نظم مبادئ جديدة في المجتمع العربي، فكانت بذلك وسيلة من وسائل الاحتكاك بالغرب لدى الإنسان العربي، وحصول التغيير فيه، وفي مظاهر الحياة والمجتمع[48].

- **أثر الرحلة في تعارف الشعوب :**

لا ينزل الرجل الفاضل بوطن إلاّ التقى بطائفة من فضلائه ، والشأن أن يصف لهم بعض النواحي من حياة قومه العلمية والاجتماعية ، ثم إذّا عاد إلى قومه ، وصف لهم حال الأوطان التي نزل بها ، فيكون كل من الشعوب التي رحل منها أو نزل بها ، على خبرة من حال الشعوب الأخرى .

قال الله تعالى : " يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم إنّ الله عليم خبير ." [49]

وقد نبهنا على أنّ الرجل الطيب السريرة ، يتخذ في كل وطن أصدقاء ، وهذه الصدقات تعد فيما يربط بين الشعوب الرابطة الوثيقة ، وتعارف الشعوب بوسيلة العلماء والأدباء ، يثير في نفوسهم عواطف الائتلاف والاحترام .

وإذا كان من أفضل آثار الرحلة عقد رابطة التعارف والتعاطف بين الشعوب ، [50]فالرحلة هي اليد التي تمتد لتقرب شعوبا تناءت عن شعوب ، وأقواما إلى أقوام تفصل بينها البحار القفار .[51]

كما لعبت الرحلة دورها الكبير في الكشف الجغرافي فقد يحصل معها الاتصال بين الشعوب ، واكتساب معرفة الواحد بالآخر ، خصوصا فيما يتعلق باللّغة والتقاليد والعادات ، واكتساب معرفة الشعوب بعضها بعض .[52]

فقد وصف " ابن حمادوش " طبيعة الآخر التي هي أساس حياته ودونها لايكون أي شكل من أشكال الحياة ، وقدمها في صورة خلابة تعكس البيئة الجميلة التي يعيش فيها الآخر ، والتي منحته فرصة التدبر في هذا الكون ، فصورها في أحسن صورة .[53]

خـــــــاتمة :

وفي ختام بحثنا هذا نخلص إلى نتيجة مفادها :

- أنّ الرحلة تثير عزيمته وتزيد نشاطه وقدرته على التفكير والانتاج ، وتطلعه على أحوال الأمم الأخرى التي تزيده بصرا بأحوال أمته ومجتمعه ونفسه .
- فالرحلة عن الموطن في نظر الأديب المثقف ليست فقط وسيلة لابتغاء الرزق أو اصطحاب الماجد أو قصد الملوك ، ولاهي وسيلة لطلب العلم والأدب المدون والمحفوظ فحسب ، بل هي قبل هذا وذاك وسيلة للشاهدة واكتشاف الجديد والاطلاع على المجهول والوصول إلى البعيد .
- للرحلة أثر في سمو الفكر إذ يأخذ الراحل فيها من التجارب ما لا يأخذه ، وهو مقيم في بلد لا يخرج منه إلى غيره ، وقد يكنون بها من قوة العقل وحسن التصرف ، وأثر واضح في تهذيب الطباع ورقي الآداب .
- فكان لزاما على الراحل أن ينصف البلاد التي ينزل بها فيذكر محاسنها ، ويغتبط بما يلافيه بها أهلها من احتفاء ومؤانسة

- لم تكن الرحلة في طلب العلم سهلة وميسرة ، بل كان الرحّالة يتجشمون العناء الكبير والمشقة التي لا يقوى عليها ، إلاّ من يمتلك عزيمة وإرادة كبيرة أثناء قيامهم بهذه الرحلات التي لم تثنهم هذه الصعوبات في المسير إلى الأمام .
- رغم صعوبتها وقسوة ظروفها تشعر صاحبها بنوع من الراحة والتمتع ، في طلب المعرفة والفوائد الجمة ، وذلك بمخالطة ولقاء العلماء .
- تأريخها لحوادث متعددة ، فاعتبرت الرحلة وثيقة تاريخية تؤرخ لفترة زمانية معينة صالحة لكل زمان ومكان .
- كان الرحالة يحسنون اختيار أماكن الرحلة ، والتي تكون عامرة بالعلماء ، ليستفيدوا من علمهم وأدبهم .
- كان للرحلات الأثر الواضح والعميق في توثيق العلاقات مع بلدان العالم للتعرف عن قرب عن عاداتهم وتقاليدهم .
- ترسيخ مجموعة من الانطباعات العامة، والتصورات عن الشعوب الأخرى والكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورحالة عرب ومسلمين ،
- الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر، الذي تشكل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسربت عبر سطور الرحالة .
- تضمينها الكثير من المدونات والمعارف التاريخية وما تحتويه من تصوير للحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكذا الثقافية ، فكانت سجلا حقيقيا لحياة الشعوب.
- تبقى هذه الرحلات شاهداً حيّاً عن مشاهد و أوضاع مختلفة، وعن طبيعة العلاقات بين مختلف الشعوب ، وفي مقدمتهم علماؤها، بتوددهم وتآزرهم وشغفهم العلمي .

المراجع:

قائمة المصادر والمراجع :

1. الأعشى : الديوان ، تحقيق إبراهيم محمد الرضواني ، ج 2، وزارة الثقافة والفنون ، ط1، 2010م ، قطر.
2. الشافعي : الديوان ، شركة الأرقم بن الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان.
3. إيميل يعقوب ، مي شيحاني : قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ، دار المعارف للملايين ، ط1، 1997م ، بيروت – لبنان.
4. محمد الخضر حسين : أثر الرحلة العلمية والأدبية ، ع 7-8، 1يوليو 1937م ، المجمع العلمي العربي ، دمشق – سوريا.
5. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ط2، مكتبة الدار العربية للكتابة، يوليو ، 2002م القاهرة .
6. يوسف وغليسي : في ظلال النصوص ، تأملات نقدية في كتابات جزائرية ، جسور للنشر والتوزيع ، ط1، 2009م ، الجزائر.
7. عبد الرحمان ابن خلدون : المقدمة ، دار الفكر ، ط2، 1988م ، بيروت.
8. حسني محمود حسين : أدب الرحلة عند العرب ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط2، 1983م.

9. ابن فارس : معجم مقاييس اللّغة ، دار الجيل ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج 2، ط1، 1991م ، بيروت – لبنان.
10. ابن منظور،لسان العرب،مج11،دار بيروت للطباعة و النشر،بيروت .
11. نوال عبد الرحمان الشوابكة : الرّحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري ، دار المأمون ، ط1، 2008م ، عمان.
12. عبد الرحمان الثعالبي : غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ويليها الرحلة ، ت محمد شايب شريف ، دار بن حزم ، ط1، 2005م ، بيروت – لبنان.
13. المازوني محمد : رحلة ابن حمادوش ، مجلة دراسات ، ع 1، 1يناير 1987م ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة القاضي عياض ، أكادير ، المملكة المغربية.
14. عمار هلال : العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين – 9/ 20 الميلاديين ، ديوان المطبوعات الجزائرية ، 1995م ، الجزائر ، ص 22.
15. عمار هلال : العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين – 9/ 20 الميلاديين.
16. عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، المؤسسة الثقافية ، ط3، 1983م ، بيروت – لبنان .
17. إسماعيل زردومي : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة – الجزائر.
18. محمد ود غيري : الرحلة وخرق صفاء النوع ، مجلة طنجة الأدبية ، ع 48، 1مايو 2013م.
19. حسين محمد فهيم : أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، (د- ط) ، 1989م، الكويت.
20. ملكة أبيض : سليمان العيسى وأدبه ، مجلة المعرفة ، ع 597، 1يونيو 2013م
21. صلاح الدين الشامي : الرحلة العربية في المحيط الهندي ، مجلة عالم الفكر ، ع 4، 1يناير 1983، دمشق.
22. شهاب الدين ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار صادر ، ج 2، (د-ط) ، 1977م ، بيروت – لبنان.
23. محمد مسعود جبران : فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ، المجلد 2، دار المدار الثقافية ، ط1، 2009م.
24. العزوني فتيحة : الرحلة في الأدب الجزائري القديم ، مجلة الكلم ، ع 3، 2017، وهران – الجزائر.
25. فريدة مقلاتي ، عباس لغرور : صورة الآخر المغربي في رحلة ابن حمادوش الجزائري " المسماة : لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال " ، مجلة إشكالات في اللّغة والأدب ، ع 4، 2019م ، تمنراست – الجزائر .
26. شوقي ضيف : أدب الرحلات ، دار المعارف ، ط 1، مصر – القاهرة .
27. نورة رحموني ، سعاد شابي : الرحلة والرحالة في الأدب الجزائري ، مجلة رفوف ، المجلد 7، ع 2، جوان 2019م

الهوامش

- 1- ابن منظور : لسان العرب ،مج11،دار بيروت للطباعة و النشر،بيروت، ،ص27 ، مادة " رحل " .

- 2- فاضل إسماعيل خليل : الرحلة في طلب الحديث ، مجلة آفاق الثقافة والتراث ، ع 57، 1أبريل 2007م ، 3- مركز جمعية ماجد للثقافة والتراث ، دبي ، ص 24.
- 4- ابن فارس : معجم مقاييس اللّغة ، دار الجيل ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج 2، ط1، 1991م ، بيروت – لبنان ، ص 498.
- 5- المنجد في اللغة والأعلام : دار المشرق ،بيروت،لبنان ،ط40، 2003، ص 253.
- 6- صلاح الدين الشامي : الرحلة العربية في المحيط الهندي ، مجلة عالم الفكر ، ع 4، 1يناير 1983، دمشق ، ص12.
- 7- شهاب الدين ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار صادر ، ج 2، (د-ط) ، 1977م ، بيروت – لبنان ، ص 420.
- 8- محمد مسعود جبران : فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ، المجلد 2، دار المدار الثقافية ، ط1، 2009م ، ص 7.
- 9- فؤاد قنديل : أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، ص 22.
- 10- إسماعيل زردومي : فن الرحلة في الأدب المغربي القديم ، أطروحة دكتوراه ، جامعة الحاج لخضر ، باتنة – الجزائر ، ص 12.
- 11- فؤاد قنديل : أدب الرحلة في التراث العربي ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، ص 22.
- 12- محمد ود غيري : الرحلة وخرق صفاء النوع ، مجلة طنجة الأدبية ، ع 48، 1مايو 2013م ، ص 27.
- 13- حسين محمد فهيم : أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، (د- ط) ، 1989م، الكويت ، ص 15.
- 14- شوقي ضيف : أدب الرحلات ، دار المعارف ، ط 1، مصر – القاهرة ، ص 7.
- 15- ملكة أبيض : سليمان العيسى وأدبه ، مجلة المعرفة ، ع 597، 1يونيو 2013م ، 27.

16- محمد بن مرزوق التلمساني : المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا الحسن ، الشركة الوطنية الجزائرية ، 1981م ، ص 480.

17- محمد مرتاض : أدب الرحلة الجزائري الحديث ، ص 23.

18- عبد الرحمان الثعالبي : غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد ويليها الرحلة ، ت محمد شايب شريف ، دار بن حزم ، ط1، 2005م ، بيروت – لبنان ، ص 115.

19- عيسى سخيني: أدب الرحلة الجزائري الحديث " سياق النّص وخطاب الأنساق " ، ص 27.

20- نورة رحموني ، سعاد شابي : الرحلة والرحالة في الأدب الجزائري ، ص 33.

21- العزوني فتيحة : الرحلة في الأدب الجزائري القديم ، مجلة الكلم ، ع 3، 2017، وهران – الجزائر ، ص 11.

22- عيسى بخيتي : أدب الرحلة الجزائري الحديث " سياق النّص وخطاب الأنساق " ، ص 35.

23- الورثيلاني : الرحلة الورثيلانية ، ص 511.

24- عيسى بخيتي : أدب الرحلة الجزائري الحديث " سياق النّص وخطاب الأنساق " ، ص 43.

25- نورة رحموني ، سعاد شابي : الرحلة والرحالة في الأدب الجزائري ، مجلة رفوف ، المجلد 7، ع 2، جوان 2019م ، ص 137.

26- صلاح الدين الشامي : الرحلة العربية في المحيط الهندي ، ص12.

27- عبد الرحمان ابن خلدون : المقدمة ، دار الفكر ، ط2، 1988م ، بيروت ، ص744